مقال

خلاصة جهود العلماء في حفظ وتدوين السنة النبوية

مصطفى البدري

مركز الشيخ
علي الغريّاني للكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ أما بعد..

فقد زادت في عصرنا نبرة الطعن في كتب السّنة من جهلاء سفهاء؛ لا يعرفون شيئًا من قواعد التثبت وأصول العلم!!

ولما كان لكل ناعق أتباع ممن يميلون مع كل ريح، أولئك الذين لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.. رأيت أن ألخص جهود علماء الحديث في جمع وتدوين السنة النبوية بأسلوب بسيط يصلح أن يستفيد منه عموم المسلمين.

◆ تقريب المشهد

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن على أصحابه الكرام، وهو يعيش وسطهم موضحًا ومبينًا كل ما يحتاجون إليه قولًا وعملًا؛ وكان عامة الصحابة يحفظ ذلك في صدره، في حين عمد قليل منهم إلى حفظه كتابة، ومثال ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما مِن أَصْحَابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عنه مِنِّي، إلَّا ما كانَ مِن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو؛ فإنَّه كانَ يَكْتُبُ ولَا أَكْتُبُ).

ورغم أن عددًا كبيرًا من الصحابة قد روى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إلا أن قليلًا منهم وصفهم العلماء بأنهم: المكثرون من الرواية.

وقد اشتهر ذلك عن تسعة؛ هم: أبو هريرة (عبد الرحمن بن صخر)، عبد الله بن عُمَر، أنس بن مالك، أمّ المؤمنين عائشة بنت الصديق، عبد الله بن عباس، جابر بن عبد الله، أبو سعيد الخدري، عبد الله بن مسعود، عبد الله بن عَمْرو بن العاص (رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين).

وفي حين استمر الأصل في تناقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحفظ والرواية الشفهية، ظهرت صحف ومرويات مكتوبة؛ كصحفية أبي بكر في فرائض الصدقة، وصحيفة علي بن أبي طالب، وصحيفة عبد الله بن عَمْرو (الصحيفة الصادقة)، وصحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة... وغيرها.

كما ظهر في عصر التابعين عدد كبير من الصحف ذكرها الخطيب البغدادي في كتابه: تقييد العلم، ويمكن الرجوع في ذلك إلى كتاب (دراسات في الحديث النبوي - مصطفى الأعظمي) وكتاب (بحوث في تاريخ السنة - أكرم العمري).

وكل هذا قبل محاولة الجمع والتدوين العام التي حصلت في عهد عمر بن عبد العزيز، وبرز فيها ثلاثة أسماء: (أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ت١٢٠هـ، محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ت١٢٤هـ، أبو محمد صالح بن كيسان ت١٤٠هـ).

◆ التدوين الخاص أو التصنيف

وبالعودة إلى الصحابة.. نجد أن بعضهم بقي في المدينة، في حين هاجر الآخرون وانتشروا في الأمصار؛ مكة، الكوفة، البصرة، اليمن، الشام، مصر... وغيرها.

وما نحتاجه في هذا المقام هو عبد الله بن عُمَر رائد مدرسة المدينة، وعبد الله بن مسعود مؤسس مدرسة الكوفة؛ حيث تتلمذ نافع المدني وعبد الله بن دينار على (سيدهما) عبد الله بن عُمَر وحملوا عنه الحديث، الذي انتقل بعد ذلك إلى إمام دار الهجرة (مالك بن أنس ت١٧٩هـ) الذي صنف بدوره (الموطّأ) أول دواوين السنة المحفوظة لنا؛ وقد قال عنه مؤلفه رحمه الله: عرضته على سبعين من فقهاء المدينة، فواطؤوني عليه؛ فأسميته: الموطأ.

وعلى الجانب الآخر تتلمذ علقمة بن قيس النخعي على ابن مسعود، وتتلمذ إبراهيم بن يزيد النخعي على علقمة، ثم حمّاد بن أبي سليمان

على إبراهيم، ويعتبر حماد أبرز شيوخ إمام أهل الرأي أبي حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ) وهو وإن لم يصنف في السنة.. إلا أن تلاميذه رووا عنه ما اشتهر بعد ذلك باسم: مسند أبي حنيفة.

واستمرت السلسلة بين مالك وتلميذي أبي حنيفة (القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني) لتصل إلى إمام بغداد ومصر (محمد بن إدريس الشافعي ت٢٠٤هـ) الذي صنف كتاب الأم؛ واستل منه تلاميذه وتلاميذهم ما عُرِف بعد ذلك باسم: مسند الشافعي.

حتى انتقل الأمر إلى إمام الفقه والحديث (أحمد بن حنبل الشيباني ت٢٤١هـ) الذي صنّف كتابًا عظيمًا حوى قرابة ثلاثين ألف حديث؛ وأسماه: المسند.

ومِن أبرز مَن ظهر في هذه الحقبة أيضًا الإمامان الجليلان (عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت٢١١هـ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ت٢٣٥هـ) حيث أخرج كل منهما إنتاجًا علميًا كبيرًا، وكان مصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة من العلامات الفارقة في تدوين وتصنيف السنة النبوية؛ وقد تميز المصنَّفان برواية آثار الصحابة وأئمة التابعين بجوار الحديث النبوي الشريف.

◆ العصر الذهبي لتدوين السنة النبوية

وخلال القرن الثالث الهجري كانت عملية جمع الأحاديث وتدوينها وتصنيفها على الكتب والأبواب الفقهية تجري على قدم وساق؛ حيث صنف (محمد بن إسماعيل البخاري ت٢٥٦هـ) كتابه الجامع الصحيح، وتبعه على ذلك (مسلم بن الحجاج النيسابوري ت٢٦١هـ) على نفس الخط؛ حيث اشترط كل واحد منهما الاقتصار على الصحيح فقط.

وتتابعت العملية على يد الأئمة الأربعة المعروفين ؛ وهم (سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني ت٢٧٥هـ، محمد بن عيسى بن سَورة أبو عيسى الترمذي ت٢٧٩هـ، أحمد بن شعيب بن علي أبو عبد الرحمن النسائي

ت٣٠٣هـ، محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني ت٢٧٣هـ) وصنف كل من الأربعة كتابًا في السنن؛ لتكتمل منظومة ما عُرِف بعد ذلك باسم: الكتب الستة.

ملحوظة: بعض العلماء يضع موطأ مالك مكان سنن ابن ماجه في الكتب الستة، وبعضهم يضع مسند الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ت٢٥٥هـ) في نفس الموضع.

وهنا يقول العلماء: إن هذه الكتب التسعة (موطأ مالك، مسند أحمد، صحيحا البخاري ومسلم، السنن الأربعة، مسند الدارمي) قد حوت عامة ما صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

◆ تتابع واستمرار

ورغم ذلك تتابعت الجهود في القرن الرابع الهجري، جمعًا وإضافة وتنقيحًا واستدراكًا حتى لا يبقى شيء مفقود غير مدون؛ فجمع (محمد بن إسحاق أبو بكر بن خزيمة ت٣١١هـ) كتابه: صحيح ابن خزيمة، ثم (محمد بن حِبّان بن أحمد البُسْتي أبو حاتم ت٣٥٤هـ) كتابه: صحيح ابن حبان؛ وقد فُقِد صحيح ابن خزيمة ولم يوجد منه سوى قدر ربعه، أما كتاب ابن حِبّان فقد نزل عن منزلة الصحيحين بسبب ما وُصِف به مؤلفه من التساهل.

ولم تتوقف الجهود عند هذا الحد.. فقد صنف (أحمد بن محمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي ت٣٢١هـ) كتابه العظيم: شرح مشكل الآثار، كما جمع (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ت٣٦٠هـ) معاجمه الثلاثة، وكذلك (عليّ بن عمر بن مهدي أبو الحسن الدارقطني ت٣٨٥هـ) صنف كتاب السنن، كما جمع (محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ت٤٠٥هـ) كتابه: المستدرك على الصحيحين، ورغم أهمية هذا الكتاب، إلا أن مؤلفه لم يصب فيه هدفه، وألّف (أحمد بن الحسين بن عليّ أبو بكر البيهقي ت٤٥٨هـ) كتابه: السنن الكبرى... وهكذا.

ولا نستطيع أن نغفل هنا كتاباتهم في علوم الحديث؛ كالتراجم والعلل والمصطلح؛ والتي شكلت بمجموعها حوائط صد قوية أمام محاولات العبث والإدراج في سنة الحبيب عليه الصلاة والسلام.

ولعلنا نخصّها بالحديث في مقام آخر بعون الله وتوفيقه.

وكذلك أفردوا الأحاديث الموضوعة والمكذوبة في مصنفات خاصة، وحذروا من روايتها إلا لبيان وضعها وكذبها؛ ولعل أبرز هذه الكتب كتاب: الموضوعات. الذي صنفه (عبد الرحمن بن عليّ أبو الفرج ابن الجوزي ت٥٩٧هـ) وتبعه في ذلك كثيرون؛ كالسيوطي والشوكاني وغيرهما.

◆ جهود لا تُنكَر

وكانت عامة الجهود بعد ذلك عبارة عن شرح وتعليق وتنقيح وترتيب واستدراك وجمع واستخراج واختصار (كل هذا) على الكتب السابقة؛ ولعلي أشير إلى أبرز هذه الجهود في عجالة كالتالي:

١- جامع الأصول (أبو السعادات المبارك بن محمد أبو المجد ابن الأثير ت٦٠٦هـ) جمع فيه أحاديث الكتب الستة بعد حذف أسانيدها وإعادة ترتيبها، علمًا بأنه اعتبر موطأ مالك سادسها بديلًا عن سنن ابن ماجه.

٢- جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سَنَن (إسماعيل بن عُمَر عماد الدين أبو الفداء ابن كثير ت٧٧٤هـ) أراد فيه جمع مسند أحمد مع الكتب الستة بإضافة معجم الطبراني الكبير ومسند البزار ومسند أبي يعلى الموصلي؛ ورغم أنه قطع فيه شوطًا كبيرًا، إلا أنه لم يتمه بسبب فقد بصره.

٣- جمع الجوامع أو الجامع الكبير (عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد أبو

الفضل السيوطي ت٩١١هـ) جمع فيه مؤلفه كل ما وقف عليه من الحديث النبوي الشريف، وقد بلغ حوالي مائة ألف حديث؛ قسمها إلى قسمين:

- الأقوال: ورتبه على حروف المعجم.

- الأفعال: ورتبه على مسانيد الصحابة.

وقد قام بنفسه بعد ذلك باختصاره في كتاب: الجامع الصغير، ثم كتب زيادات منفصلة، لكن جمعهما (يوسف بن إسماعيل النبهاني ت١٣٥٠هـ) في كتاب واحد، وأسماه: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير؛ وهو الذي قام (محمد بن نوح بن نجاتي ناصر الدين الألباني ت١٤٢٠هـ) بتقسيمه إلى صحيح الجامع (٨٢٠٢ حديثًا) وضعيف الجامع (٦٤٥٠ حديثًا).

وعلى ذِكْر الشيخ الألباني رحمه الله؛ ينبغي أن نشير إلى جهوده العظيمة في تقسيم السنن الأربعة إلى صحيح وضعيف، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة... إلى غير ذلك من تحقيقاته النافعة البديعة.

٤- معالم السنة النبوية (صالح الشامي) وهو مشروع عصري مفيد؛ جمع فيه أحاديث أربعة عشر كتابًا من كتب السنة، وهي: (الصحيحان، السنن الأربعة، موطأ مالك، مسند أحمد، مسند الدارمي، صحيحا ابن خزيمة وابن حِبّان، مستدرك الحاكم، سنن البيهقي، الأحاديث المختارة للضياء المقدسي) فنتج مجموع أحاديثهم ١١٤١٩٤ حديثًا، وبعد حذف المكرر وصلت إلى ٢٨٤٣٠ حديثًا، ثم بعد ذلك قام بتنقيحها اعتمادًا على محققي العصر للكتب المذكورة؛ فأخرج ٣٩٢١ حديثًا صحيحًا، منها في صحيحي البخاري ومسلم ٢١٣١ (حوالي ٥٥%) من جملة الناتج) وبإضافة ١٥٦٠ حديثًا من بقية الكتب التسعة، يبقى فقط من الكتب الخمسة الأخيرة ٢٣٠ حديثًا صحيحًا ليست موجودة في الكتب التسعة.

ولئلا يُطرح إشكال زيادة أحاديث الصحيحين عن العدد المذكور.. نوضح أن القائمين على المشروع قد ضموا كل الأحاديث المكررة إلى بعضها، حتى لو تعدد الصحابة الرواة لنفس الحديث.

وهـو بلا شـك مشـروع مهم حـريّ بالاعتنـاء والمراجعة مـن القائمين عليه وغيرهـم، حتى تتحقـق منه أكبر فائـدة ممكنة.

وبهـذا تظهـر لنا نبذة يسـيرة مـن جهود العلمـاء على مر العصـور والدهور لأجـل الحفـاظ على سـنة النبي عليه الصلاة والسـلام، ونشـرها بيـن العامة والخاصة كلٌّ بحسـب قدراتـه وإمكاناته.

فكيـف بعد ذلـك يخرج الأغمار السـفهاء الحدثاء ليقدحوا فـي هذه الجهود، ويسـقطوا هـؤلاء العلمـاء الكبـار؛ الذيـن بذلوا الغالـي والنفيـس في خضم هـذا الطريق الوعـر المهيب؟!

والله من وراء القصد.